

ليلى بمليكي سفينة حنان الى القمر

وانا اغمض عينيّ استطيع ان ارى كل ما حولي ، المقعد الطويل الذي يملأ حائطاً شاسعاً في الغرفة من الزاوية الى الزاوية . والرفوف على الحيطان الباقية . والطاولة الصغيرة . والطراريج الملونة على السجادة . واللبة البيضاء بشكل مصباح بترول كبير التي تتدلى من ثقب في الحائط وترتكز على البلاط . حتى الشبايك تركناها بلا ستائر . وفي الغرفة الثانية صوفا عريضة . وطاولة عليها مرآة . وخزانة في الحائط . وكريسيان من قماش المخمل . لم نغير شيئاً في البيت الصغير منذ تزوجنا ، ورفضتُ ان انقل اي شيء فيه الى مكان آخر .

فتحت اجفاني قليلا حين سمعت زوجي يتمم أن (الضوء قد طلع ، ووجدنا المستيقظان في المدينة) . رأيتَه يرتفع امام النافذة ونور الفجر الفضي ينهمر على وجهه وكل جسمه العاري . أحبّ جسده عارياً .

عدت واغمضت عينيّ ، فانا ايضاً استطيع ان ارى كل ذرة فيه وكل تفصيل دقيق يتخفى : شعره الناعم وجبهته وانفه وشفتيه وذقنه وعروق رقبته وشعر صدره وبطنه وقدميه واطرافه . وناديتُه ان يرجع ويتمدد قربي : عندي رغبة في ان اقبله ؛ فلم يتحرك . عرفت انه يتهياً لان يقول شيئاً هاماً ، من انفصالي عني ووقوفه بعيداً . هكذا يصبح قاسياً عنيدا ينجح في اخذ القرارات وتنفيذها . وانا على عكسه تماماً : لانا قسه يجب ان

اتمسك بيده ، او المس ثيابه . لهذا فتحت عينيّ ، ورميت الطراحة التي كنت احتضنها ، وانتشلت قميصه ، وفرشته على صدري ، وعلقت نظري في السقف ، وسألته ان كان يرى البحر ، فاجاب (ارى البحر). سألته ما لونه، قال(ازرق غامق من جهة ومن جهة ابيض رمادي). سألته هل اشجار السرو لا زالت هناك ، اجاب (لا زالت بين البيوت المتصقة ببعضها ، وان على سطوح البنايات مياه راكدة). قلت انني احب شجرة البلح الوحيدة التي تبدو من عندنا كأنها مزروعة في البحر، وان اشجار السرو تصور لي المقابر البيضاء . صمتَ طويلا وانا لا زلت احدق بالسقف ، ثم ردد (الديوك تصيح) . اسرعتُ اخبره انني لا احب طيور الدجاج لانها تعجز عن التحليق ، وانني كنت وانا صغيرة احملها الى سطح منزل وارميها في الفضاء اجرّب تعليمها كيف تطير ، وكانت الديوك وما والدجاجات تتكوم على الارض بلا حراك .

عاد وصمت قليلا ثم قال انه (يرى ضوءا اشتعل في نافذة بناية مقابلة) . قلت مع هذا لازلنا وحدنا المستيقظان في المدينة، المتعانقان الوحيدان طول الليل فيها . قال انه (شرب كثيراً الليلة) . عجلت اقاطعه انني اكره هذه العبارة — شربت كثيراً — شربت كثيراً — كأنه يندم على الجنون الذي احببني به واللهفة. شعر انني بدأت انرفز. بدل الحديث ، قال (تبدو المدينة ككومة من الاحجار الثمينة البراقة بكل الالوان والاحجام) . اجبته انني اتخيل المدينة الآن علما من الكرتون الملون اذا نفخت فيها تهبط . وبيتنا وحده بغرفتيه يتعلق على غيمة ، يسير في الفضاء . قال ان (الجفاف في فه ويريد برتقالة) . اكملت ومع انني لم اسكن مدينة غير هذه المدينة كنت اكرهها ، ولو لم احلم بانني يوما ما التقي برجل يأخذني بعيداً عنها بعيداً لمتُ كمداً من زمان زمان . تظاهر بانني لم يسمع عبارتي الاخيرة . ردد (اريد برتقالة ، نشف حلقي) . اهملت طلبه ، واهملت انني معه لا اكرث للمكان ، تحتفي اليابسة باشجارها وجبالها وانهرها وحيواناتها وبشرها . لم يعد قادراً على الانتظار . انفجر يسألني (لماذا ترفضين انجاب الطفل ؟) حزنت وانعصر قلبي وصعدت الدموع الى اذنيّ فلم افتح فمي . سألتني (منذ متى تزوجنا ؟) لم انطق بحرف وانا اتتبع دورانه . جمد وتابع (منذ سنة وعدة شهور تزوجنا وانت ترفضين ترفضين ، مع انك كنت مهووسة بالاطفال قبل ان نتزوج ، كنت مريضة

بهم) . وزاغ يضرب المقعد بيديه ويردد (اتذكر ايها المقعد توسلاتها ؟ وانت ايتها اللببة هل سمعت صوت نحيبها ؟ وانت ايتها المخدات كم جعلت منك اجساداً صغيرة تحتضنها وتغفو قربها ؟ انظقي ايتها الجمادات . انظقي . اعيدي لها صوتها الغائر فيك) . بهدوء قلت ان الجمادات لا تحس ولا تتكلم ولا تتحرك . غضب وشرح أن (من اين لك ان تعلمي انها ميتة ؟) ، اجبت ان الاشياء ليست ميتة ، انها فقط تستمد نبضها من الاشخاص . فقاطعتني انه (لن يجادل الآن في الاشياء ولن يتركني اتهرب من حل هذا الموضوع ككل مرة) . شرحت له ساهية ان الاشياء حولي ، هذه الاشياء بالذات : هذا المقعد ، هذه السجادة ، هذه الجدر ، هذه اللببة ، هذه المزهرية والرفوف والسقف ، انها مرآة هائلة تعكس لي العالم الخارجي : البيوت ، والبحر ، والاشجار ، والسماء ، والشمس ، والنجوم ، والسحب . والمخ فيها ماضي معه ، ساعات التعاسة والكمذ ولحظات اللقاء والحنين واللذة والهناء ، ومنها الان استمد صور الايام الاتية . وانني لن اتخلى عنها . غضب وصرخ (عدنا الى الاشياء . اريد ان افهم الآن والآن لماذا ترفضين الطفل) . لم اعد احتمل . صرخت انه هو ايضا كان يرفضه في وقت من الاوقات . صمت برهة ثم قال انه (رفضه قبل ان تزوج وكانت حماقة ان تأتي به) . بسخرية قلت انه كان يخافهم ، هؤلاء الآخرين المهرجين ، في المدينة . كان يستجدي رضاهم وبركتهم وموافقتهم ليراني واراها ويضمني واضمه ويغرقني بالحب واغرق فيه . كانوا يحددون لنا امكنة لقاتنا ، وعدد خطواتنا اليها ، والزمن ، ومرتبة ارتفاع صوتنا ، وعدد انفاسنا . وكنت اراقبهم انا ، كانوا يسخرون منا في سرهم ، كانوا ينامون بوقاحة مع الاجساد التي يحبونها ، ويأكلون ثلاث وجبات طعام في النهار ، ويدخنون سجائرهم مع فناجين القهوة وبطحات العرق ، ويقهقهون ، يعلكون في ابتذالهم حكاياتنا ، ويخترعون قواعد لنا للغد ننفذها لهم . اتاني صوته مختنقا وهو يغمغم (لم اكن اكثرث للآخرين . كنت مرتبطا بامرأة اخرى) . آه كيف يمكنني ان اتحمل كل هذا العذاب ، كل هذا التمزق ، كل هذا العشق له ؟ تتمت انه كان جباناً ، كان يعجز عن الاعتراف لها بالحقيقة بانه لم يحبها ولا يحبها ولن يحبها) . قال باختناق انه (لم يكن هينا ، كان قاسياً عليه ان يحقد بوجه انسان ويقول له ، بعد تسع سنوات كان ينهض فيها كل يوم ، كل يوم ،

فيجده امامه ، يقول له : الآن انتهى المشهد . ويدبر له ظهره ويبتعد) . امرته ان ينظر الى يده اليمنى ، وسألته ان كان دمي لا زال هناك يقطر منها ساخنا على الارض . غمغم (كنت مجنونة . مجنونة حين نفذت الفكرة . فتحت هذا الباب . دخلت هذه الغرفة . رأيتك انت ممددة على هذا المقعد . شرايين يديك مذبوحة . تسبح اصابعك في بحيرتي دماء . كنت مجنونة . كان يمكن ان افقدك) . تبسمتُ بحزن ، وانا اشد قميصه الى صدري ، الى وجهي ، اشمشه . وقلت ان دوري في المسرحية كان يقتضي الانسحاب في النهاية ، وكان الغياب الممكن عندي الذي اتقبله واستطيع احتماله هو الموت السريع ، بدل الزحف البطيء القاسي . كضفدعة الماء التي ضلت طريقها في الرمال ، في عين الشمس ، في تفتيشها عن ضفة النهر ، في فيلم « حياة كلاب » . ردد حزينا انه (لم يكن يعلم انني جادة في تعلقي به) . سألته ساخرة وهل كان ينتظر ان اقتل نفسي ليتأكد من صدقي ؟ واخبرته انني كنت ضائعة فيه ، كنت عاصفة حب زائفة اتسلل بين اصابع الناس ، والفح وجوهم ، واخترق الشوارع غير منظورة . كنت احس فقط ثقل الاجسام وارتفاع البناءات ويديه ، وطلبت منه ان يقرب ويعطيني يديه لانني اشتقت لهما . فظل بعيدا جامداً ، واسرع يتهمني (بعد كل هذا الشقاء والانتصار ارفض ان احبل منه . وارفض . ارفض . ارفض) . ويفهم من رفضي انني لم اعد احبه . ماذا ؟ صرخت ان لا يمكنه ان يتهمني بذلك ابدا . البارحة فقط كنت ممددة قربه ، كان يستسلم لنوم عميق وانا مفتحة الاجفان ، احضف وجنتي بذقنه ، واقبل صدره ، واندس تحت ذراعه ، ابحت عبثاً عن النعاس . هنا صارحته ان يزعجني فيه سرعة الذهاب في النوم وتركه وحيدة صاحبة بجانبه . اسرع مستنكرا يقول انه (لم يتبه يوما بانني اظل ساهرة . كان يعتقد انني اغفو لحظة يغفو هو) . ابدت بحبث انها ليست المرة الاولى التي يتركني فيها وحدي . ثم اكملت سرد حادثة البارحة ، انه كان نائما يتنفس بهدوء ، وانا مستلقية على جنبتي التصق به ، ادخن سيجارة ، وفجأة رأيت في فضاء الغرفة بين الدخان قدما هاربة من تحت الشراشف . حركتها فلم تتحرك ، وسرت برودة في جسدي كله . حركتها فلم تتحرك . فخطر لي ان اصرخ . حركتها فلم تتحرك . فاسرعت اخبيء وجهي في شعره ، خفت . خفت . فتحرك هو ، وتحركت القدم . وبكيت بصمت . كنت احسب ، كنت اشعر ، كنت لا

استطيع التفريق بين قدمه وقدمي . ردد بصوت خافت (في هذا العصر لا يموت الناس من الحب) . اسرعت اغتم الفرصة ، فقلت وفي هذا العصر لا ينجب الناس اطفالا : كانوا في القديم يعرفون اين يسقط رأس الطفل ، ومن يمكن ان يشبه ، وذكر هو ام انثى ، كانوا يغزلون له قمصانا من الصوف وجوارب ، وكانوا يطرزون له ذبول الفساتين والجيوب والقبات بعصافير ملونة وازهار . وكانوا يجمعون له الهدايا صلباناً من الذهب وما شاء الله وكفوفا مرصعة بحجارة زرقاء وسلاسل حفر عليها اسمه . كانوا يحجزون له الداية ويحددون لها يوم الولادة . وكان يهجم الطفل من الظلام ويرتمي في النور في توقيته الدقيق المنتظم . وكانوا يسجلون باسم الطفل قطعة ارض . وكانوا يستأجرون له بيتاً ، ويختارون له الرفاق ، ويعرفون الى اي مدرسة يرسلونه ، والمهنة التي يتعلمها ، والشخص الذي يمكن ان يحبه ويربط مصيره بمصيره . كان هذا من زمان بعيد بعيد ، في عهد والدك والدي . استفهمني (هل تعتقد ان العشرين سنة الماضية دهرأ ؟ ماذا تغير الآن ؟ ماذا تغير ؟ الا يمكنني ويمكنك اعداد كل ما يعد للطفل ؟) لاختف عنه شرحت انني قبل ان اتزوج كنت انا كطفل يستلقي على ظهره امام نافذة ، يراقب النجوم ، يمد ذراعه الصغيرة يود قطفها . كنت اتسلى بهذا الحلم ، بهذا المستحيل ، اتعلق به واتمناه . سألني (اذأ كنت تخدعيني) . ماذا ؟ اكتشفت انه حوّر الحديث الى هجوم عليّ لكسب المعركة . فاسرعت اصارحه ان المرأة المحرومة مع رجلها هي وحدها التي تلح في طلب الطفل لتغيب ، وتتلذذ في اللقاء به ، وتنحدر . اسرع يقاطعني (وهل كنت غير مكثفة ؟) اجبته أن كنا نخاف ، كنا لا نساfer الى آخر المجاهل الحلوة ، كنا نرتعد ، كنا نصطدم دوماً بوجوه الآخرين ونسمع اصواتهم . ومن اجله هو ومن اجلي انا استقلت لاجيا . وانه يخطيء ، يخطيء في شكه بجنوني به . تتم (ضعتُ . لا افهمك) . هاجمته أن اجل اجل لن يفهمني ايضاً اذا اخبرته انني لا اجرؤ ان احبل . انني لن اقدر هذا الخطأ . زعق : (خطأ ؟ خطأ ؟)

تشبثتُ بقميصه اكثر ، استمد قوة . وعلى مهل ، وبصوت خافت ، حكيت له كيف يرعيني مصير طفل نزميه في هذا العالم . كيف اتخيل طفلي انا ، هذا الكائن الذي اطعمه من دمي واضمه في احشائي واقاسمه تنفسي ونبضات قلبي وطعامي اليومي واعطيه ملامحي والارض ، كيف يحتمل في المستقبل ان يتخلى عني ويذهب في صاروخ الى القمر يستوطن

هناك . وهناك من يدري ان كان يسعد او يشقى . انخيل طفلي باربطته البيضاء ، يطفر الدم من وجهه الطري ، مشدودا الى كرسي داخل كرة زجاجية مثبتة على رأس قضيب طويل من المعدن الكاكي ينتهي بطيات تشبه تنورة فستاني « الشارلستون » . ويضغط على زرّ ، وتهب عاصفة غبار ، وينطلق سهم في الفضاء . لا يمكنني . لا يمكنني .

صمت طويلا طويلا ، ونور الفجر يتسلل الى زوايا الغرفة من وجهه ، ووجهه ساه يفتش في السماء عن سهم ووجه طفل . كان الشرش بين حاجبيه معقودا . كان الاستغراب والتوتر على فمه . فصمت انا ايضا ، واغمضت عيني .

وعندما اصبح قربي ، واقفا كبرج هائل في محطة اطلاق صواريخ ، خفق قلبي وتمتمت له انني اعشق جسده عاريا . عندما يرتدي ثيابه ، خصوصا عندما يعقد ربطة عنقه ، احسّه شخصا غريبا جاء الى البيت في زيارة لسيد البيت . فتح ذراعيه ، وانحنى . فهجمت الى حضنه اهذي : احبك . احبك . احبك . احبك . احبك . وهو يهمس في شعري (انت لؤلؤتي) . ثم نشر راحة يده على شفتي ، وشدني اليه بيده الاخرى ، وامرني (هيا لنصعد انا وانت الى القمر) .